﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧﴾ [الواقِعَة: 4 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من انقلاب الموازين إلى بيان المصائر

بَعدَ أن افتُتِحَت السّورةُ ببَيانِ عَظَمَةِ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ وهَولِها في قَولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أُتبِعَ ذلكَ بوَصفٍ عامٍّ لِحالِها بأنَّها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، ناسب ذكرُ آياتٍ لِتفصيلِ مَزيدٍ من أهوالِ يَومِ القيامةِ ومَظاهرِها الكَونيّةِ، فذِكرُ رَجِّ الأرضِ وبَسِّ الجِبالِ هوَ تَمهيدٌ حِسّيٌّ ومشهَدٌ بَصريٌّ يُصوّرُ هَدمَ نِظامِ الدُّنيا؛ ليكونَ ذلكَ مَدخَلًا لِوصفِ النّظامِ الجَديدِ الّذي سَيُفرَزُ فيهِ النّاسُ إلى أصنافِهم: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، أي: فِئاتٍ مُتمايِزَةً بحَسَبِ أعمالِهم ومَواقِفِهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُجَّتِ﴾: الرّجُّ: الاضطراب والتَّحرُّك الشَّديد، ومعنى: ﴿رُجَّتِ﴾ رَجّها راجٌّ، وهو ما يطرأ فيها من الزَّلازل والخسف ونحو ذلك[1]. ورُجَّت "حُرّكت تحريكًا شديدًا حتَّى ينهدم كلُّ شيء فوقها من جبل وبناء"[2]. ورجَّة القوم: اختلاط أصواتهم. ورجَّة الرَّعد: صوته. والرَّجُّ التَّحريك[3]. و(رَجَّ) بمعنى حرّك بعنف، والرَّجُّ: الاضطراب الشَّديد، وغالبًا ما يكون في الأجسام الثَّقيلة، فـ﴿رُجَّتِ﴾ تدلُّ على زلزال عظيم يزعزع كيان الأرض. ومن المجاز: ارتجّ عليه الكلام: اضطرب والتبس[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 22/ 140.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (رجج).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رجج).

2) ﴿وَبُسَّتِ﴾: البَسّ: تفتيت الشَّيء وسحقه حتَّى يصير كالتُّراب أو الدَّقيق[1]. وجاء في الكشّاف: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾؛ فُتَّتْ حتَّى تعود كالسّويق، أو سيقت من بسِّ النِّعم إذا ساقها. كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النَّبأ: 20][2]. قال ثعلب: معناه خلطت بالتُّراب، وقال اللِّحيانيُّ: وقال بعضهم فُتَّتْ، وقال بعضهم: سوّيت، وقال أبو عبيدة: صارت ترابًا تربًا[3].

3) ﴿هَبَآءً﴾: جذر الكلمة (هبا)؛ قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، يعني أنَّ الجبال بعد أن سُحقت صارت كالغبار الدَّقيق المتناثر، لا يُمسك ولا يُجمع. (الهَباءُ) الشَّيءُ المُنبَثُّ الَّذي تَراهُ في البَيتِ مِن ضَوءِ الشَّمسِ. والهَباءُ أيضًا دُقاقُ التُّرابِ. و(الهَبوَةُ) الغَبَرَةُ[4].

4) ﴿مُّنۢبَثًّا﴾: جذر الكلمة هو (بثث)؛ وكلُّ شَيء فرَّقته فقد بثثته. وانبثَّ الجَراد في الأرض: تفرَّق. وفي التَّنزيل: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: 4][5]. وكلمة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ تعني: متفرِّقًا ومتناثرًا في كلِّ اتِّجاه. وفي سياق الآية، تصف حال الجبال بعد سحقها، أنَّها صارت غبارًا دقيقًا لا يُجمع، لا وزن له ولا أثر. فقوله: ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ يدلُّ على التَّلاشي الكامل بعد القوَّة.

5) ﴿أَزۡوَٰجًا﴾: الزَّوجُ البعل، والمرأة زوج، قال تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدّخان: 54]؛ أي: قرنّاهم بهنَّ من قوله تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصّافّات: 22]؛ أي: وقرناءهم، والمُزاوَجَةُ والازدِواجُ بمعنًى؛ والزَّوجُ ضدُّ الفرد وكلُّ واحد منهما يُسمَّى زوجًا، يُقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج، كما يُقال: هما سيّان، وهما سواء، وتقول: عندي زوجا حمام، يعني ذكرًا وأنثى[6]. وكلمة ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ تعني: أصنافًا وطوائف وجماعاتٍ متشابهةً في الصِّفات والمصير.

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بسس).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (بسس).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (هبا).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بثث).
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (هبا).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

انقلاب الكونِ يوم القيامة في مخلوقاته كلِّها العاقل وغير العاقل

تُبيِّن الآياتُ الكريمة صورةً مروِّعةً لمشهدٍ من مشاهدِ القيامةِ، تبدأ به وقد خرجت عن استقرارِها الَّذي طالما استأنس به البشر. فقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ هو افتتاحٌ لرسمِ ذلك الحدثِ الهائل، والرَّجُّ ليس مجرّدَ حركةٍ، بل هو اضطرابٌ شامل، كأنّ كلَّ ما على ظهرِها يهتزّ بعنفٍ ويدور بلا قرار. ثمَّ تأتي الجبال، رمز الثَّبات والعلوِّ والشُّموخ.

تذكرةٌ للقلوب بأنَّ ما كان عظيمًا ينهار، فكيف بالإنسان؟

والآية ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ تصوِّر مشهدًا من أهوال القيامة، حيث تزول أعظم رموز الثَّبات في الأرض، وتبطُلُ معالم القوَّة والرُّسوخ، إيذانًا بانهيار نظام الدُّنيا. فتتحوَّل الجبال الشّامخة إلى هباء، لتتبدّد هي الأخرى لتصير ﴿هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾، أي كالغبار المُتناثر، لا يُمسك ولا يُجمَع، يذهب في كلِّ اتِّجاه، كأن لم يكن. وبعد هذا الانقلاب الكونيِّ، يتَّجه السّياق مباشرة إلى الإنسان: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾. فيُحَوَّل النَّظر إلى ما هو أهمّ وهو مصير الإنسان ذاته. والمُراد بـ(الأزواج) الأصناف، بحسب مصائرهم وأعمالهم. فكما سقطت الجبال من عليائها، سيسقط كذلك كلُّ وهم بشريٍّ في الثَّبات والاستحقاق إن لم يكن له عند الله وزن.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاحتمال الدَّلاليّ في إعراب ﴿إِذَا﴾:

تعدُّد وجوه الإعراب والدَّلالات البلاغيَّة في تصوير مشهد القيامة

وهذا من أعذَبِ وأدقِّ المَواضِعِ في عِلمِ البلاغةِ والنَّحوِ معًا؛ لأنَّ إعرابَ ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ يَأتي من أوجُهٍ عِدَّةٍ، وكُلُّ وجهٍ يُعطي دَلالةً خاصَّةً تَنسجِمُ مع السّياقِ وتُضيفُ إليهِ معنًى مُميَّزًا، وهذا ما يُسمَّى في البلاغةِ بـ(براعةِ الاحتمالِ)، فهي تحتمل أن تكونَ بدلًا من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾[1]، ويكون تكرار (إذا) توكيدًا لشدّة امتزاج المضاف

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

بالمضاف إليه[1]. والدّلالةُ البلاغيَّةُ لهذا الإعرابِ هي أن يكون رجُّ الأرض وما بعده هو المقصود، وتحتمل أن تكونَ في مَحلِّ خبرٍ لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تقديرُهُ: (هيَ) إذا رُجَّتِ الأرضُ. أي أنَّ الحديثَ عن الواقِعَة وما يُلازِمُها، والخبرُ هو هذهِ الأحداثُ العَظيمةُ. والدّلالةُ البلاغيَّةُ الاستئنافُ الإخباريُّ، كأنَّ السّياقَ يَتوقَّفُ لَحظةً ليُعلِنَ: ها هوَ وقتُ الرَّجِّ قَد حانَ. ويحتمل أن يَكونَ الظَّرفُ متعلّقًا بـ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[2]، أي أنَّ الخافضةَ الرّافعةَ تَكونُ عندما تُرَجُّ الأرضُ. فتكونُ ﴿إِذَا﴾ ظرفَ زمانٍ لِهذا الوصفِ. والدّلالةُ البلاغيّةُ في ذلك: الرّبطُ بين حَركةِ الرّجِّ والبَسِّ كأسبابٍ لِخَفضِ أقوامٍ ورَفعِ آخَرينَ. فأحداثُ القيامةِ ليست كَونيّةً فحسبُ، بَل هي عَدليَّةٌ كذلكَ، تَتَجَلّى فيها حِكمةُ اللّهِ وعَدلُهُ، وتَتَحقّقُ سُنّةُ قَلبِ المَوازينِ. ويحتمل أن يَكونَ الظَّرفُ متعلّقًا باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، أي أنَّ (الواقِعَة) تَقَعُ عندَ رَجِّ الأرضِ وبَسِّ الجبالِ. وهذا يُؤسِّسُ ترابُطًا زَمَنيًّا وسَبَبيًّا بَينَ الوُقوعِ وتِلكَ الأحداثِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿رُجَّتِ﴾:

رجُّ الأرضِ يأخذها بالكاملِ بحركةٍ منتظمةٍ لبلوغِ المقصود

آثر النّظم الكريم استعمالَ مُفرَدةِ ﴿رُجَّتِ﴾؛ باختيارِ فِعلٍ قَويٍّ الحَركةِ والإيقاعِ. والفِعلُ (رَجَّ) يَدُلُّ على التَّحريك والهَزِّ الشَّديدِ العَنيفِ[3]. وغالبًا ما يكونُ اضطرابيًّا لا مُنتظمًا، ويَتضمَّنُ تَكرارَ الحَركةِ بقوَّةٍ واهتزازٍ عَنيفٍ، فقولُ اللّهِ: ﴿رُجَّتِ﴾ يوحي بأنّ الأرضَ لا تَهتزُّ فقط، بل تَضطَربُ اضطرابًا عَظيمًا مُتكرِّرًا.

والرَّجُّ يَختلِفُ عن الزَّلزلةِ أو الاضطرابِ؛ لأنَّهُ أشَدُّ وقعًا وأعمقُ أثَرًا، فهو تصويرٌ للأرضِ بأنَّها تُرَجُّ رَجَّ الغربالِ أو الطّاحونَةِ. ويَكمُنُ

(1) الزّركشيّ، البرهان، ص: 386.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(3) ابن سيده، المُحكم: (رجج).

فيهِ الإيحاءُ بالاضطرابِ الكاملِ للأرضِ؛ فمعنى ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ يَعني أنَّ كُلَّ ما فيها اهتزَّ؛ جِبالُها، تُرابُها، أوديَتُها، سُكّانُها؛ فهو شامِلٌ في أثَرِهِ، مُطلَقٌ في قوَّتِهِ. وهذهِ صورَةٌ مُروِّعَةٌ تَبعَثُ على الخَشيَةِ والانتِباهِ والتَّهَيُّؤِ لِلآخِرَةِ.

الأحداث الكبرى تُذكر بمضامينها الرَّهيبة وغموضِ مشاهدها

نُكتة التَّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول:

جاءَ فعل الرَّجِّ في قولِهِ تعالى: ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ للتّعظيم[1]، وبيان ما في هذا الفعل من هولٍ وجلالٍ، فالمقصودُ ما جرى لها من الاضطرابِ العظيمِ والاهتزازِ الشَّديدِ، والبناءُ للمفعولِ يُشيعُ في الذِّهنِ جوًّا من الرَّهبةِ والغموضِ، فهو يوحي بأنَّ هذا الرجَّ ليس فعلًا عاديًّا بل فعلٌ كونيٌّ جبّارٌ، وقد وردت الأفعالُ الواردةُ في هذا المقطعِ على ذات النَّمطِ كقولِه: ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾، و﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾، و﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾، كلّها تُصوّرُ هولَ القيامةِ لا من جهةِ الفاعلِ بل من جهةِ الأثرِ النّاشئِ، وفي ذلك تناغمٌ بلاغيٌّ يوحِّدُ السّياقَ ويزيدُهُ رهبةً ووقعًا، والتَّعبيرُ بالمبنيِّ للمفعولِ في ﴿رُجَّتِ﴾ يُشعرُ أنَّ الرَّجَّ كان بقهرٍ إلهيٍّ، فالأرضُ لم تهتزّ باختيارِها بل أُجبرَت على ذلك، وكأنَّها تُساقُ إلى مصيرِها بقدرةٍ تقصمُ وتغلبُ، فكان التَّعبيرُ بالمبنيِّ للمفعولِ مفيدًا لتهويلِ الحدثِ وتعظيمِ أثرِهِ وصرفِ الذِّهنِ عن ذِكرِ الفاعلِ ليرتكزَ التَّصويرُ على شدَّةِ الاهتزازِ وفداحةِ الاضطرابِ، مع ما يتضمَّنهُ ذلك من دلالةٍ على القهرِ الإلهيِّ الَّذي لا يُردُّ، فيملأُ القلبَ خشيةً، والرّوحَ رهبةً.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ

(1) الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: 1/ 167، والصّبان، حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ: 2/ 61.

رَجًّا﴾، من قبيلِ التَّعبيرِ عن الكلّيِّ المعروفِ، لا عن فردٍ من أفرادِه، فالتَّعريفُ هنا؛ المقصودُ به الإشارةُ إلى الأرضِ المعهودةِ في ذهنِ المخاطَبِ[1]، وهيَ هذهِ الأرضُ الَّتي هو عليها ويَسكنُها ويَعرفُ معالمَها، فصارَ التَّعريفُ دالًّا على الشُّمولِ المكانيِّ دونَ الحاجةِ إلى مزيدِ تفصيلٍ، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ يُفيد أنَّ هذا الرَّجَّ سيشملُ كاملَ البسيطةِ، لا جهةً دونَ جهةٍ، ولا إقليمًا دونَ آخرَ، بل الاضطرابُ يعمُّ ظاهرَها وباطنَها، شرقَها وغربَها، يَتناولُ الجبالَ والأوديةَ، والمدنَ والباديَ، فذلكَ هو الرَّجُّ الكونيُّ العامُّ.

الأرض المعهودةُ في الأذهان سيزول معهودها ويثبت عهدها

فائدة المفعول المطلق ﴿رَجًّا﴾:

أُكِّد فعل (الرّجّ) بالمصدر؛ للدَّلالة على تحقُّقه، وليتأتَّى التَّنوين المشعر بالتَّعظيم والتَّهويل[2]، وفائدةُ المفعولِ المُطلَقِ في قولِه تعالى: ﴿رَجًّا﴾ أنَّه جاء على وجهِ التَّوكيدِ للفعلِ الَّذي قبلَهُ، وهو قولهُ: ﴿رُجَّتِ﴾؛ لِزيادةِ تقريرِ الفعلِ في الذِّهنِ، وترسيخِ معناهُ في السّمعِ، وتضخيمِ الصّورةِ المتخيّلةِ لهُ، وهو ما يُعبَّرُ عنه في فنّ البلاغةِ بأنَّهُ من ضُروبِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ المقصودِ به تعظيمُ الشَّأنِ، وتهويلُ الحدثِ.

تقرير فعل الرّجّ وترسيخ معناه في الذّهن

نوع عطف ﴿وَبُسَّتِ﴾ على السّابقة ودلالتها:

عُطِفَت جملة ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ على ما قبلها: ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ على وجهٍ من وجوهِ التّرتيبِ التَّصويريِّ والتّناسقِ البلاغيِّ، "وبسُّ الجبال؛ لأنَّه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض"[3]. فذكرُ بَسِّ الجبالِ بعد رَجِّ الأرضِ يُمثّلُ امتدادًا تصاعديًّا في توصيفِ ما يقعُ من اضطرابٍ كونيٍّ عند قيامِ السّاعةِ، فكما أنَّ رَجَّ الأرضِ يُصوّرُ اضطرابَ الأساسِ الَّذي عليهِ يقفُ الخلقُ، فإنّ

الرّجُّ والبسّ يقعان في آنٍ، والتَّرتيب باعتبار عطف الجزء على الكلّ

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

بَسَّ الجبالِ يُمثّلُ تهديمَ أعظمِ ما يُرى من معالمِ الرُّسوخِ والثَّباتِ، فالجمعُ بينهما تصعيدٌ في مشهدِ الزّلزلةِ، والانتقالُ من اضطرابِ المسطَّحِ إلى تفتيتِ المكوّناتِ الكبرى.

وعطفُ الفعلِ ﴿وَبُسَّتِ﴾ مع الواوِ، لا على طريقِ التّرتيبِ الزّمنيِّ المحضِ، بل لِدلالةِ الاشتراكِ في وصفِ الهولِ؛ فالحدثان يقعان معًا في تتابعٍ سريعٍ لا يكادُ يُفصَلُ بينهما، فالعطف من ذكر الجزء بعد الكلِّ، وذلك من دلائلِ الأسلوبِ التَّصويريِّ السّريعِ الّذي يُريدُ أن يضعَ السّامعَ في قلبِ المشهدِ، فيرى الأرضَ تهتزُّ، والجبالَ تتناثرُ، فصارَ العطفُ هنا أداةً لتجسيمِ الرّعبِ، وتوسيعِ دائرةِ المشهديّةِ الكونيّةِ.

بلاغة استعمال مفردة (بُسَّت):

تصويرُ الجبالِ في حالةِ الفناءِ الغابر والغبار الفاني

البَسُّ يُطلق بمعنى التَّفتُّت وهو تفرّق الأجزاء المجموعة[1]، ومنه البسيسة من أسماء السّويق، أي: فُتِّتَت الجبالُ ونُسفت فيكون كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه: 105 - 106]، وعَن مَعمَرٍ، عَن قَتادَةَ، قالَ: (نُسِفَت نَسفًا)[2]، ويطلق البسّ أيضًا على السَّوق للماشية، يقال: بَسّ الغنم، إذا ساقها. وفي الحديث: «فيأتي قوم يَبِسّون بأموالهم وأهليهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[3] فهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: 47]، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النَّبأ: 20][4].

وقد وردَ استعمالُ الفعلِ (بُسَّت) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ على نَحوٍ بَليغٍ يَدلُّ على عُمقِ الأثرِ وشِدَّةِ الفِعلِ، فإنّ الفعلَ (بَسَّ) في أصلِ معناهُ يَدلُّ على الفَتّ والدّقِّ والنَّثرِ الشّديدِ، فكانَ هو الأنسبَ في سياقِ تَصويرِ انهيارِ الجِبالِ وتفكّكِها، لا على وجهِ

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 640.
(2) عبد الرّزاق الصّنعانيّ، تفسير عبد الرّزاق: 3/ 276.
(3) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (1776) باختلاف يسير في لفظه.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

الانهدام العاديِّ، بل على وجهٍ يُخرِجُها من حالِ الجرمِ الصّلبِ إلى حالِ الذَّرّةِ المُتناثِرَةِ. واختيارُ هذا الفعلِ دونَ غيرِهِ من الأفعالِ الّتي تُستعملُ في وصفِ الزّوالِ، كالهَدمِ أو التّسويةِ أو النّسفِ، لَهُ دلالتُهُ البيانيّةُ، إذ (البَسّ) أخصُّ من تلكَ الأفعالِ؛ لأنّهُ يَجمعُ بين الشِّدّةِ والتّذريةِ، ويُفيدُ أنَّ الجبالَ لم تُزَحزَح أو تُفَتّت فحسبُ، بل ذُرَّت كما يُذَرُّ الطَّحينُ، بل أبلغُ من ذلكَ، فإنّ البَسَّ في عُرفِ العربِ يكونُ لما يُرادُ جعلهُ هَباءً أو غُبارًا، وهذا ما يُناسِبُ تمامًا مَآلَ الجبالِ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

فكانَ اختيارُ (بُسَّت) دونَ غيرِهِ من الأفعالِ نقلًا للمشهدِ من ظاهرِ التَّصويرِ إلى باطنِ الرّهبةِ، وجعلًا للجِبالِ - وهي أشدُّ خلقِ اللّهِ في الأرضِ - كأنّها هشيمٌ تذروهُ الرّياحُ، وهذا من سِماتِ فصاحةِ القرآنِ حينَ يُصوّرُ بأوجزِ لفظٍ وأوسعِ مَشهدٍ.

فوائد التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول:

تعظيم أهوال القيامة وتوجيه الأنظار إلى المفعول وبيان مقهوريّته

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ (بُسَّت) على صيغةِ المَبنيِّ للمفعولِ، لِغرضٍ بلاغيٍّ دقيقٍ وهو صرفُ الذِّهنِ عن الفاعلِ، وتَركيزُ الانتباهِ على الحدثِ نفسِهِ، وهو هنا تفتيتُ الجبالِ وبَسُّها بَسًّا شديدًا، وفائدة ذلك التَّهويلُ والتّعظيمُ، فبناء الفعلِ للمفعول يُثيرُ في نفسِ السّامعِ رهبةً عظيمةً، لما فيهِ من إبهامِ المصدرِ وتضخيمِ الأثرِ، فكأنّ الجبالَ قد أصابها أمرٌ جَبّارٌ لا يُعرَفُ كنهُهُ، ولكنّ أثرَهُ ظاهرٌ في أعيُنِ النّاسِ، فصارَ هذا الإبهامُ مُثيرًا للذّعرِ، ومُعظِّمًا لِوقعِ المشهدِ في الأسماعِ والقلوبِ.

ومن فوائده توجيه الأنظار إلى المفعولِ لا الفاعلِ، إذ المقصودُ في هذا السّياقِ تصويرُ مآلِ الجبالِ، لا ذكرُ الفاعلِ الّذي يُباشرُ الفعلَ؛ لأنّ الفاعلَ في المقامِ معلومٌ بالبداهةِ، وهو قدرةُ اللّهِ تعالى الّتي تُجري هذه الأهوالَ، فلا حاجةَ إلى إظهارِه لفظًا، بل الأحسنُ بلاغةً

أن يُركَّزَ على تحوُّلِ الجبالِ، وأنّها بُسَّت بَسًّا يُزيلُ معالمَها ويجعلُها هباءً منبثًّا.

وكذلك بيان أنَّ هذا البناءَ يُفيدُ إجبارَ المفعولِ على ما أصابهُ، ففيه إيحاءٌ بأنّ الجبالَ لم تنفعل بذاتها، بل سُيّرَت إلى هذا المصيرِ عن قهرٍ، فهو قضاءٌ إلهيٌّ واقعٌ عليها لا تملكُ له دفعًا، كما هو حالُ كثيرٍ من مشاهدِ يومِ القيامةِ، حيثُ الأشياءُ تسيرُ إلى مصيرِها وهي مُسخَّرةٌ لأمرِ اللّهِ، لا تملكُ حولًا ولا قوّةً.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

تعريف الجبال لتعيينها وبيان ما يُصيب ما دونها

عُرِّف لفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ المذكورَ جبالٌ معروفةٌ معيَّنةٌ في ذهنِ المخاطَبِ، وهي جبالُ الأرضِ الّتي يعهدُها النّاسُ في دنياهم، الجبالُ المشهودةُ الّتي طالما استُعظِمَت، وأُضفيَ عليها معنى الثّباتِ والرّسوخِ، واستغراق كلِّ أفراد الجنس[1]، فلا يشذّ جبل عن هذا الأمر، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النّبأ: 7]، فصارَ ذكرُها مُعرَّفةً توجيهًا للقارئِ إلى تصوّرٍ حَيٍّ لحقيقتها، وتذكيرًا بعظمةِ ما يُصيبُها من التّفكُّكِ والبَسِّ بعدَ طولِ استقرارِها.

نكتة جمع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

استغراق جميع الجبال كبيرها وصغيرها المعروف والمجهول

جُمِع لفظُ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ ليدلَّ على العمومِ والشّمولِ، أي: إنَّ جميعَ جبالِ الأرضِ - على اختلافِ أماكنِها وهيئاتِها -، ستكونُ محلًّا لهذا الانهيارِ الكونيِّ، فلا يُستثنى منها جبلٌ صغيرٌ أو كبيرٌ، ولا معروفٌ ولا خفيٌّ، فالجمعُ أبلغ في التّهويلِ من الإفرادِ؛ لأنَّهُ يُري المتلقّي أفواجًا من الجبالِ وهي تتحوّلُ إلى هباءٍ منبثٍّ، لا يُرى لها أثرٌ ولا يُبصَرُ منها بقايا. وهذا منسجم مع التَّعريف لغاية شمول جميع أفراد الجنس.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.

فائدة المفعول المطلق ﴿بَسًّا﴾:

تعظيم فعل البسّ وتكثيف المشهد

جاء المفعول المطلق ﴿بَسًّا﴾؛ لتوكيد الفعل وتقوية معناه، فتوكيد فعل (بُسَّت) بقوله: ﴿بَسًّا﴾ كالتَّوكيد في قوله: ﴿رَجًّا﴾ لإفادة التَّعظيم بالتَّنوين[1]. إذ ليس المقصود مجرّدَ ذكر التَّفتيت، بل بيَّنت أنَّه تفتيتٌ تامٌّ عنيفٌ تتلاشى فيه الجبال من شدّته. فالتَّكرار بهذا المصدر يضرب بوقعه على السَّمع والنَّفس، فيجعل السّامع كأنّه يشهد الجبال وهي تُسحق سحقًا حتَّى لا يبقى لها من صلابة ولا هيبة، وكأنَّها ترابٌ تذروه الرّياح. فجاء ﴿بَسًّا﴾ توكيدًا يهزّ وجدان المتلقّي، لا ليصف مشهدًا فقط، بل ليُشعر به، ويُدخله في قلب الواقِعَة الَّتي تُبدّل الكون وتُذهل العقول. وهذا من دقائق البيان القرآنيِّ الَّذي لا يكتفي بالإخبار، بل يُدخل المعنى في كيان السّامع إدخالًا.

فجاءَ على وجهِ توكيدِ معنى الفعلِ وتقريرِه[2] في الذّهنِ تقريرًا يُجاري فخامةَ السّياقِ، فإنّ المقصودَ من ذكرِ ﴿بَسًّا﴾ بعدَ الفعلِ (بُسَّت) ليس مجرّدَ التَّكرارِ، بل التّوكيدُ والتّهويلُ والتّصويرُ، وذلكَ من دلائلِ الفصاحةِ في البيانِ القرآنيِّ، إذ يُؤتى بالمفعولِ المطلقِ ليُضفي على الفعلِ قوّةً في الإيقاعِ، وثباتًا في المعنى، وشدّةً في التّصوّرِ، وقد تقرَّر لدى النُّحاة أنّ المصدر المؤكِّد عوضٌ عن تَكرار الفعل مرَّتين[3].

توجيه تخصيص الجبال بالذِّكر مع اشتمال الأرض عليها:

ذكر الجبال بعد الأرض تخصيصٌ للتَّفصيل، وتعميقٌ للتَّهويل

خُصَّت ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ بالذِّكرِ في هذا الموضعِ بعدَ أن شملَها مدلولُ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾، وذلكَ لِغرضٍ بلاغيٍّ دقيقٍ يجري على سَنَنِ الإطنابِ البيانيِّ في ذكر الخاصِّ بعد

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(2) الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: 1/ 186، والرضي، حاشية الرّضي على الكافية: 2/ 122.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 392.

العامِّ، الّذي يُقصدُ بهِ تقريرُ المعنى في النُّفوسِ، وتثبيتُ صورتهِ في الخيالِ، فإنّ الجبالَ وإن كانت داخلةً في الأرضِ، إلّا أنّها لِما لها من استقلالٍ في الصّورةِ والمعنى، ولِما يُنسَبُ إليها من الثَّباتِ والعظمةِ والرُّسوخِ، استحقّت أن تُذكَرَ على جهةِ التّخصيصِ والتّفصيلِ، لِما في ذكرِها من تهويلٍ للحدثِ، وتفخيمٍ للانقلابِ الكونيِّ.

وهذا التَّخصيص في غاية الأهمِّيَّة فهو يرتبط بقضيَّة علميَّة وهي دور الأرض في تثبيت القشرة الأرضيَّة؛ لأنَّ الجبال هي الَّتي تمسك بالقشرة الأرضيَّة[1]. فليسَ تخصيصُ الجبالِ هنا من قبيلِ التَّأسيسِ لمعنًى زائدٍ فقط، بل هو أيضًا تصويرٌ لفاجعةٍ مخصوصةٍ، هي تفتيتُ الجبالِ وتذرّيها، وهي الَّتي كانت رمزًا للصَّلابةِ ومثالًا في الاستقرارِ، ومسك الأرض؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: 15] وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النّازعات: 32]، فكانَ ذكرُها بعدَ الأرضِ تنبيهًا على أنّ ما يقعُ ليس اهتزازًا فقط، بل تحوّلٌ تامٌّ لِبنيةِ أعظمِ ما على الأرضِ من معالِمها.

نوع الفاء ودلالتها:

تفريعُ نتيجةِ الرَّجِّ والبسِّ بالهباءِ المنبثِّ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أفادت ربط الجملة بالسّابق، والتَّفريع على ما قبلَها[2]، وتفريع قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ على (بُسَّتِ الجِبالُ) لائق بمعْنَيي البسّ؛ لأنّ الجبال إذا سيّرت فإنّما تُسيّر تسييرًا يُفتّتها ويُفرِّقها أي: تسييرَ بَعثَرَة وارتطام[3]. فالمعنى: إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا، وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا، حينئذٍ وقعَ ما لا يُتوقّعُ، فكانتِ الجبالُ هباءً منبثًّا؛ فالفاءُ هنا ليست فاءَ التّعقيبِ الزّمانيِّ فحسب؛ بل هي أيضًا فاءُ تفريعٍ بيانيٍّ تُفيدُ أنّ ما بعدها ناشئٌ عن مضمونِ ما قبلَها، فهي تربطُ بين المقدّماتِ

(1) المصلح، الاعجاز العلميّ في القرآن والّسنة، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

الكونيّةِ العظيمةِ - من رَجٍّ وبَسٍّ - وبين النّتيجةِ المترتّبةِ، وهي تحوّلُ الجبالِ إلى هَباءٍ لا قِوامَ لهُ.

وهذا لا ينفي أن يكون استعمالُ الفاءِ دونَ غيرِها من أدواتِ الرّبطِ للدّلالة على سرعةِ التّحوّلِ وفجائيّته، فالبَسّ ما إن وقعَ، حتّى صارتِ الجبالُ هباءً في الحالِ، لا انتظارَ ولا مُهلةَ، وفي ذلكَ تصويرٌ لمشهدِ الدّمارِ الكونيِّ كأنَّهُ لمحةٌ خاطفةٌ، تقعُ في طرْفةِ عينٍ، فتُصيبُ السّامعَ بالدّهشةِ والرّهبةِ.

نُكتة استعمال (كانت):

انـقـلاب كينونة الأرض والجبال إلى الهباء المنبثّ

جاءَ التّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ على وجهٍ فيهِ دقّةٌ بلاغيّةٌ، والمعنى أنَّها تصير شيئًا كلا شيء؛ لتفرّق أجزائها وانبثاث جواهرها[1]. إذ اختيرَ الفعلُ (كانَت) دونَ أن يُقال: (فأصبحت) أو (فصارت)، مع أنّ المعنى يوحي بانقلابِ حالٍ، وتحوّلٍ من صورةٍ إلى أخرى، ووجهُ ذلكَ أنّ الفعلَ (كان) أوسعُ دلالةً، وأقلُّ زمنًا، وأبلغُ في الرَّبطِ بين الذّاتِ وصفتِها، بخلافِ (أصبح) و(صار)، فإنَّ فيهما معنى التّحوّلِ الظّاهرِ، أو الارتقاءِ أو النّقصِ بحسبِ السّياقِ، وهو هنا غيرُ مرادٍ.

فـ(كانَت) تدلُّ على تحقّقِ مضمونِ الخبرِ على وجهٍ مباشرٍ، من غيرِ نظرٍ إلى وسائطِ التّحوّلِ، فالمقصودُ أنَّ الجبالَ حينَ بُسَّت، لم تحتج إلى زمنٍ لتصيرَ هباءً، بل كانت هي الهباءَ عَينَهُ في الحالِ، فورَ وقوعِ الانفجارِ، من غيرِ تدرّجٍ ولا انتقالٍ، فيُقرِّرُ سبحانه حقيقتَها الجديدةَ بإيجازٍ يُقابلُ عِظَمَ المشهدِ، وسُرعةَ الفَناءِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿هَبَآءً﴾:

الـهـبـاء بـيـانٌ مـصـير الـجـبـال من الرُّسوخ إلى الانمحاق

الهباء هو الَّذي يَطيرُ مِنَ النّارِ، إذا اضطَرَمَت، يَطيرُ مِنهُ الشَّرَرُ، فإذا وقَعَ لَم يَكُن شَيئًا[2]، أو هو ما يلوحُ في خيوط شعاع الشَّمس من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 688.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 515.

دقيق الغبار[1]، وقد جيءَ في ختامِ هذا المقطعِ الكونيِّ المهيبِ قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، فجاءتْ لفظةُ ﴿هَبَآءً﴾ في موقعٍ بليغٍ من النَّظمِ، لتُجسّدَ صورةً خَتَميّةً لانمحاقِ معالمِ الجبالِ الّتي طالما كانت رمزًا للرّسوخِ والعَظمةِ، فجاءَ التّعبيرُ بـ﴿هَبَآءً﴾، وهو أدقُّ ما يُتصوَّرُ من أجزاءِ المادّةِ، إذ هو ما يُرى في ضوءِ الشّمسِ من غبارٍ دقيقٍ مُتطايرٍ لا يدركُهُ بصرٌ، ولا يُحَسُّ لهُ وزنٌ.

فـ(الهَباءُ) أقصى ما يُمثَّلُ به الفَناءُ والانعدامُ، فكانَ اختيارُهُ في هذا الموضعِ غايةً في الإيجازِ الصّوريِّ، إذ جعلَ مصيرَ الجبالِ – مع ضخامتها – إلى ذرّاتٍ لا تدركها العينُ، ولا تحفَظُ لها كيانًا.

نكتة وصف ﴿هَبَآءً﴾ بصفة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾:

الـهـبـاء المنبثُّ صورة الانمحاق الكلّيّ الشّامل

وُصِفَ ﴿هَبَآءً﴾ بقولِهِ تعالى: ﴿مُّنۢبَثًّا﴾، فكانَت هذهِ الصّفةُ من تمامِ التّصويرِ البيانيِّ الّذي بُنيَ عليهِ المشهدُ الكونيُّ، إذ ليسَ كلُّ هَباءٍ يُحدثُ الرّهبةَ، بل الّذي يُرى مُتناثرًا مُتفرّقًا مُنشقًّا في الفضاءِ، هو الّذي يُثيرُ في النّفسِ معنى التّلاشي والانمحاقِ، و"المنبَثُّ: اسم فاعل انبثَّ، مطاوع بثَّه، إذا فرّقه. واختير هذا المطاوع لمناسبته مع قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ في أنَّ المبنيَّ للنّائب معناه كالمطاوعة، وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ تشبيه بليغ، أي: فكانت كالهباء المنبثِّ"[2].

وهذهِ الصّفةُ تُقرّرُ نهايةَ صورةِ الفَناءِ الّتي بلغَتها الجبالُ، فهي لم تُمحَ فحسب، بل تفرّقَت ذراتُها وانتثَرَت في الأرجاءِ كما ينتشرُ الغُبارُ في الشّمسِ، فلا يُرى منهُ شيءٌ يجتمعُ، ولا يُمسَكُ لهُ أثرٌ، وهذا المعنى أبلغُ في بيانِ عَظمةِ الحدثِ من القولِ بأنَّها دُكّت أو سوّيت.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ﴾ عاطفة على ﴿رُجَّتِ﴾، فهي انتقالٌ من شأنٍ إلى شأنٍ، ومن طَورٍ إلى طَورٍ، فكما انفرط عِقدُ الكون، وتبدَّدت أركانُه، كذلك سيُعاد نسجُ مصير الإنسان، ولكن لا بحسب موقعه في الدُّنيا، بل بحسب عمله فيها، فجاء قوله ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ليقسم النّاس قسمًا عدليًّا يعادل ذلك الانقسام الكونيَّ.

بعد تفتيت الأرض بجبالها ينقسم النّاس أصنافًا للحساب

براعة الانتقال والتَّخلُّص إلى مقصود السّورة:

ينتقل السّياق نقلة محكمة محبكة في بنائها، في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، فبعد أن كان الحديث في عالم الأهوال والدّمار، يتحوَّل إلى عالم الحساب والجزاء، ويُدرج الإنسان فجأة لا كمشاهد، بل كمحكوم عليه، فالمخاطَب هنا هو كلُّ من يقرأ أو يسمع، وقد أحاط به السّياق من كلِّ جانب.

استدراجُ الأذهان إلى ساحة الحساب مباغتةٌ تُنادي على مَنْ رامَ الحقَّ وطلب الصِّدق

وهذا التَّحوُّل في الضَّمير، من الغَيبة في ﴿فَكَانَتْ﴾ إلى الخطاب في ﴿وَكُنتُمْ﴾، ليس تغيّرًا شكليًّا، بل هو مقصودٌ بلاغيٌّ يراد به إدخال الإنسان في قلب الموقف، وجرُّه من مقام التَّأمُّل إلى مقام التَّوجُّه والمساءلة، فهو تخلّص بلاغيٌّ بديع[1] حقَّق انتقالًا من تصويرٍ إلى تقرير، ومن تمهيدٍ إلى تفصيل.

فأرادت السّورة أن تبتدئ من المصير نفسه، أن تعرض النِّهاية ابتداءً، ليرتجف لها القلب، وتتشكَّل في الذِّهن صورة الحشر والجزاء من اللَّحظة الأولى، ولهذا كانت هذه الجملة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ هي المفصل الَّذي تُبنى عليه السّورة من بعد، فيُفصَّل فيه القول في أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسّابقين، أولَئِكَ المُقَرَّبونَ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.

بلاغة ذكر (كنتم):

أفعال العبادِ في الدُّنيا ستكوِّن وجـودَهـم في الآخرة

استُعمِلَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ قَولُهُ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ دون أن يُقالَ مثلًا: (وَبُعِثْتُم أزواجًا ثَلاثَةً) أو (وَصِرتُم بَعدَ البَعثِ أزواجًا ثَلاثَةً). ويَعودُ هذا الاختيارُ البَلاغيُّ المُتقَنُ إلَى قَصديَّةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ ودِقَّتِهِ، إذ إنَّ (كُنتُم) أوسَعُ مِن حَيثُ الزَّمَنِ مِن (بُعِثْتُم)؛ فالفِعلُ (بُعِثْتُم) يَختَصُّ بلَحظَةِ البَعثِ فحَسب، أمّا (كُنتُم)، بمَعنَى قُسِّمتُم بما كانَ في جِبِلّاتِكُم وطِباعِكُم في الدُّنيا[1]. وهوَ مِن أفعالِ الكَونِ النّاقِصَةِ، فيَحمِلُ دَلالَةً وُجوديَّةً تُشيرُ إلَى حالَةٍ استِمراريَّةٍ وثَباتٍ. أي إنَّكُم على هَذا التَّصنيفِ - ثَلاثَة أصناف - كُنتُم عَلَيهِ دائِمًا وثَبَتُّم عَلَيهِ، فصارَ حالُكُم في الآخِرَةِ نَتيجَةً لِما عِشتُم عَلَيهِ في الدُّنيا؛ فالكينونة تُشير إلى سلوكٍ معتادٍ في الدُّنيا؛ فالتَّقسيمُ لَيسَ وليدَ اللَّحظَةِ، بَل هوَ مُتَرَتِّبٌ على حَقيقَةٍ وُجوديَّةٍ كُنتُم عَلَيها.

فائدةُ الخطاب في قوله: (كنتم):

إيقاظ المخاطَبين مـن غـفلتـهـم وتـحـريـك هواجس النَّفس من سهوها

الخطابُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ للبشرِ عمومًا، وتَتَجَلّى بَلاغَةُ الخِطابِ في العُدولِ عنِ الغَيبَةِ إلى المواجَهَةِ. فبَعدَ أن كانَتِ الآياتُ تَصِفُ مَشاهِدَ القيامَةِ بصيغَةِ الغائِبِ - كما في قَولِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ - جاءَ هذا التَّحوُّلُ المُفاجِئُ في الأُسلوبِ بقَولِهِ: ﴿وَكُنتُمْ﴾ مُخاطِبًا السّامِعينَ مُباشَرَةً، لإشراكِهِم شُعوريًّا ووِجدانيًّا في المَوقِفِ العَظيمِ. وهذا الانتقالُ البَلاغيُّ يُعَدُّ مِن أساليبِ التَّحفيزِ، الَّتي تَقطَعُ الحاجِزَ بَينَ السّامِعِ والحَدَثِ، فيَغدو المَشهَدُ الأُخرَويُّ أمامَهُ مواجَهَةً لا حِكايَةً.

فَإيرادُ الضَّميرِ بصيغَةِ الخِطابِ فيهِ استدعاءٌ نَفسيٌّ لإحساسِ المتلقّي بأنَّهُ معنيٌّ بنفسِهِ، لا بمن هم غائبون عنه. وهذا أبلَغُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 403.

التّأثيرِ والتّحذيرِ؛ لأنَّهُ يستنفرُ الشّعورَ الذّاتيَّ، فيُخرجُ الآيةَ من دائرةِ الوصفِ إلى دائرةِ المشاركةِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿أَزْوَاجًا﴾:

قَولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أشكالًا وأشباهًا وأصنافًا؛ فالنُّكتَةُ البَلاغيَّةُ في اختيارِ لَفظِ ﴿أَزْوَاجًا﴾ دونَ رَديفاتِها كـ(أصناف) أو (أنواع)، تَكمُنُ في دِقَّةِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ الَّذي لا يُقَدَّمُ فيهِ اللَّفظُ إلّا لِمُلاءَمَتِهِ التّامَّةِ لِلسّياقِ والمَعنَى المَقصود؛ فلَفظُ (الزَّوج) في أصلِ مَعناهُ اللُّغَويِّ لا يُرادُ بهِ المُفرَدُ وحَسب، بَل يَدُلُّ على الاقترانِ بَينَ شَيئَينِ مُتَماثِلَينِ أو مُتَكامِلَين، فالأزواج تُطلق على "الأصنافِ الَّتي بَعضُها مَعَ بَعضٍ أو يُذكَرُ بَعضُها مَعَ بَعضٍ"[1]. وبِهذا يَتَجاوَزُ المَفهومُ العَدَديُّ إلى المَعنَى النَّوعيِّ، فـ "الأزواجُ: هيَ الأصنافُ. ووَجهُ ذلِكَ أنَّ الصِّنفَ إذا ذُكِرَ يُذكَرُ مَعَهُ نَظيرُهُ غالِبًا فيَكونُ زَوجًا"[2].

الإيماء إلى تشابه صفات الصِّنف الواحد في الإيمان والسُّلوك

فجاءَ اختيارُ ﴿أَزْوَاجًا﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ بَدَلًا مِن (أصنافًا) أو (أنواعًا) لِيُعَبِّرَ لا عن مُجَرَّدِ التَّقسيمِ العَدَديِّ، بَل عن حالَةٍ وُجوديَّةٍ مُتَجانِسَةٍ داخِلَ كُلِّ فريقٍ. فكُلُّ مَجموعَةٍ مِن هذهِ (الأزواج) تَضُمُّ أفرادًا قَد تَشابَهوا في الإيمانِ أوِ الكُفرِ، في العَمَلِ أوِ الجُحودِ، فكانوا أشباهًا بَعضُهُم لِبَعضٍ، وصاروا كَأنَّهُم أزواجٌ في الصُّحبَةِ والمَآلِ. وهَذا يُؤَكِّدُ المَعنَى النَّبَويَّ: «المَرءُ مَعَ مَن أحَبَّ»[3]، ويُؤَصِّلُ القاعِدَةَ الأُخرَويَّةَ: (يُحشَرُ المَرءُ مَعَ مَن أحَبَّ)، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾ [الصّافات: 22].

دلالة العدد ﴿ثَلَاثَةً﴾:

تتجلَّى دلالَةُ اختيارِ العَدَدِ ﴿ثَلَاثَةً﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا

دفع الاحتمالات المتوهَّمة وتوطئة للبيان القادم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 284.
(3) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (5816)، ومسلم، صحيح مسلم، رقم: (2641).

﴿ثَلَٰثَةً﴾ في إحكامِ النَّسَقِ البَلاغيِّ والدّلاليِّ الَّذي أرادَهُ السّياقُ، وجاءَ بهِ القُرآنُ في تَمامِ اتِّساقِهِ وإعجازِهِ. فلَيسَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ عَشوائيَّةُ لَفظٍ، ولا مُجازَفَةُ مُجازَفَةٌ في العَدَدِ؛ بَل هوَ عَدَدٌ جاءَ مَبنيًّا على حِكمَةٍ بَيانيَّةٍ وسياقيَّةٍ، تُغني عَنِ الإطنابِ وتَدُلُّ على التَّحديدِ المُحكَمِ.

فَلَو قيلَ: (أزواجًا مُختَلِفينَ) أو (أصنافًا مُتَفَرِّقينَ)، لَأفادَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ التَّبايُنِ أوِ التَّعَدُّدِ، مِن غَيرِ بَيانٍ لِلحَصرِ ولا دلالَةٍ على التَّرتيبِ. أمّا قَولُهُ ﴿ثَلَٰثَةً﴾، فلَيسَ هوَ عَدَدًا حِسابيًّا مَحضًا، بَل هوَ عَدَدٌ يَحمِلُ في طَيِّهِ قيمَةً تَمييزيَّةً ووَعظيَّةً؛ إذ بِهِ يُبَيَّنُ أنَّ البَشَرَ يُقَسَّمونَ يَومَ القيامَةِ إلى ثَلاثِ طَوائِفَ لا رابِعَ لَها، وكُلُّ طائِفَةٍ تُمَثِّلُ مَنزِلَةً مَخصوصَةً في سُلَّمِ الجَزاءِ، فيَحصُلُ مِن ذلِكَ التَّمايُزُ البَيِّنُ، والتَّدَرُّجُ في المَصيرِ، والتَّفاوُتُ في المَنزِلَةِ.

وَفي العَدِّ إلى ثَلاثَةٍ بَلاغَةٌ مُحكَمَةٌ؛ لِأَنَّهُ عَدَدٌ مَحصورٌ، يُلغي التَّصَوُّراتِ المَفتوحَةَ والاحتِمالاتِ المُتَشَعِّبَةَ. فلَيسَ النّاسُ على دَرَجاتٍ لا تُحصى، ولا على تَنَوُّعٍ يُربِكُ الفَهمَ، بَل على ثَلاثِ مَراتِبَ واضِحَةٍ: أصحابُ المَيمَنَةِ، أصحابُ المَشأَمَةِ، والسّابِقونَ المُقَرَّبونَ. وبِهَذا يَنغَلِقُ بابُ التَّأويلِ والتَّشكيكِ، ويَنفَتِحُ بابُ التَّفَكُّرِ والمُحاسَبَةِ: إلى أيِّ طائِفَةٍ سَيَنتَمي السّامِعُ؟.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البسُّ والتَّفريق:

الفَرقُ المُعجَميُّ بَينَ البَسِّ والتَّفريقِ قائِمٌ على دَرَجَةِ التَّحَوُّلِ في البِنيَةِ، وشِدَّةِ الانفِصالِ أوِ التَّفَتُّتِ بَينَ الأجزاءِ: البَسُّ في اللُّغَةِ هوَ الدَّقُّ والفَتُّ والتَّفتيتُ الشَّديدُ المَصحوبُ بالخَلطِ والامتِزاجِ، حَتَّى يَصيرَ الشَّيءُ إلى أجزاءٍ ناعِمَةٍ لا يَتَميَّزُ بَعضُها عَن بَعضٍ. تَقولُ العَرَبُ: بُسَّ الطَّعامُ إذا دُقَّ وخُلِطَ ومُزِجَ، حَتَّى صارَ كالدَّقيقِ المُندَمِجِ، فَفُقِدَ فيهِ التَّمايُزُ.

أمّا التَّفريقُ، فهوَ فصلُ الأجزاءِ عَن بَعضِها، دونَ أن يُشتَرَطَ فيهِ التَّفَتُّتُ أوِ الامتِزاجُ. بَل قَد تَبقَى الأجزاءُ مُتَمايِزَةً، وقَد تَبقَى على حالَتِها الصُّلبَةِ، لَكِنَّها تُفَرَّقُ وتُبعَدُ عَن بَعضِها. والتَّفريقُ لا يَقتَضي التَّحَوُّلَ في البِنيَةِ، وإنَّما هوَ تَغييرٌ في الوَضعِ والمَوقِعِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 149 - 150.

وَفي ضَوءِ هذا الفارِقِ الدَّقيقِ، يَظهَرُ الإعجازُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ فقَد جاءَ اختيارُ (بُسَّت) دونَ (فُرِّقَت) أو (قُطِّعَت)؛ لأنَّ البَسَّ يُفيدُ أنَّ الجِبالَ لَم تُفرَّق فقَط، بَل تَفَتَّتَت، وتَحَوَّلَت إلى ذَرّاتٍ مَسحوقَةٍ مُختَلِطَةٍ، لا كيانَ لَها، ولا تَمايُزَ بَينَها. وهذا ما يَتَناسَقُ تَمامًا مَعَ قَولِهِ بَعدَ ذلِكَ: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾، أي صارت غُبارًا دَقيقًا مُنتَشِرًا في الهَواءِ، لا يُمسَكُ، ولا يُجمَعُ، ولا يُرَى إلّا في ضَوءِ الشُّعاعِ.

التّفريق تفكيك الأجـزاء والبسّ تـفـتـيـتـهـا بـعـد تفريقها

البثُّ والانتشار:

البثّ هو التّفريق والنّشر مع بعثرة، وكلّ شَيءٍ فرَّقته فقد بثثته[1]. ويُستعمل غالبًا في التّوزيع غير المنتظم، الَّذي يحمل دلالة العشوائيّة، والضّياع، والتّفرّق بلا نظام. إذ يوحي البثُّ بالتّشتيت والتّفتيت الكامل، وهو أقرب إلى ما يُرى عند نثر الرّماد أو الغبار في مهبّ الرّيح. وفي هذا انعدام للتّماسك أو التّجانس.

الـبـثُّ تـفـريـق عشوائيٌّ عنيف، والانتشار يُلحظ فـيـه الـتَّـوازنُ والتَّسلسل

في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾، يصف هذا النَّوعَ من التّفكّك؛ حيث تصير الجبال هباءً، ثمّ لا تظلّ على حالها، بل تُبَثّ، أي تُذَرّى وتُبعثر في كلّ اتِّجاه. فالبثّ هنا أكمل في تفتيت الكيان من مجرَّد الذّوبان أو الانتشار.

أمّا الانتشارُ فهوَ الامتدادُ والانتسابُ في المكانِ، وغالبًا ما يكونُ مُنتظمًا أو سلسًا، ولَهُ طبيعةٌ هادئةٌ نِسبيّة. والنَّشر: الرّيحُ الطَّيّبة، وفي حديثِ معاوية أنه خرج ونَشرُهُ أمامَه، يعني ريحَ المسك[2].

وحينَ يكونُ التَّوزيعُ واسعًا بتوازنٍ، كما يُقالُ عن الضَّوءِ أو الرَّوائحِ. في التَّصويرِ: الانتشارُ يوحي بالبَسطِ أو التَّمدُّدِ، لا التَّفَكُّكِ ولا التَّذَرِيَةِ الكاملةِ؛ فلم يقل: (مُنتشرًا) في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتۡ

(1) الخليل، العين: (بثث)، وابن الجوزي، غريب الحديث: 2/ 407.
(2) الخليل، العين: (نشر).

هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، مع أنّ الهباءَ قد ينتشرُ، لكنّهُ أرادَ تصويرَ لحظةِ الانفجارِ الكاملِ للعالَمِ، والتَّفتُّتِ الكونيِّ غيرِ القابلِ للجمعِ أو الإدراكِ. فكلمةُ ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ تُصوِّرُ الهباءَ في لحظةِ تَفَكُّكِهِ وذَهابِهِ يَمنَةً ويَسرَةً، لا يَستَقِرّ، لا يُجمَع، لا يُشاهدُ بصورةٍ واحدةٍ، على وجهٍ فيهِ قدرٌ من الانتظامِ أو التَّوازنِ، وهو ما لا يليقُ بمشهدِ الانهيارِ الكاملِ ليومِ القيامةِ في المقابلِ، لو قيلَ: (مُنتشرًا) لَفُهِمَ المعنى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"